من آثار علاقة العدالة بالعبـادة في إصلاح المجتمع

في ضوء فكر بديـع الزمان سعيد النورسي

د. جمال السعيدي
جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط
المملكة المغربية

مقدمة:

إن الدارس لرسائل النور - بتأمل وروِيَّة - ليدرك تمام الإدراك أن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي صاغها صياغة إيمانية، نابعة من صدقه في التعامل مع كتاب الله المسطور (القرآن الكريم) وكتاب الله المنظور (الكون) والسنة النبوية المطهرة، واستفادته من علوم دينية وطبيعية وإنسانية.

لقد عاش الأستاذ رحمه الله ظروفا حالكة مظلمة، كان فيها العالم الإسلامي ممزقا ومفرقا وضعيفا، يئن تحت الضربات الموجعة للاستعمار الغربي، الذي كان يفرض سيطرته بكل ما أوتيه من قوَّة لفصل الدين عن الحياة.. وإبعاد الناس عن القيم الدينية والإنسانية المشتركة.

في ظل هذه الظروف عاش الأستاذ، فرأى بنور القرآن والإيمان، أنه لا حياة مطمئنَّة ولا سعادة حقيقية للإنسانية إلا بالرجوع إلى القرآن، الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ هذا القُرْآنَ يَهدي للتي هي أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنينَ الذين يَعْمَلون الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ أَجْراً كبيراً﴾ (الإسراء: ٩)

وكانت أداة الأستاذ الأساسية - التي وفّقه الله لاستخدامها لهذا الغرض، بكل سكينة وطمأنينة وهدوء - هي أداة اللسان.. فباللسان كان يتكلم ويحاضر، وباللسان كان ينصح، وباللسان استطاع أن ينشر حقائق الإسلام، ويدوِّنَها - بعد ذلك - في

كليات رسائل النور، ليتناقلها الناس، جيلا بعد جيل، وتصبح أنوارها ساطعة في كل زمان ومكان.

ومن الأمور التي شغلت بال الأستاذ وتناولها بالدرس والتحليل، المفاهيم والتصورات للحياة والكون وأصله وغاية الإنسان في هذا الوجود.

وقد عزم - رحمه الله - على أن يسخِّرَ لسانه وقلمه ليخاطب الناس، مسلمين وغير مسلمين، بأنه لا سعادة في الدنيا إلا بالرجوع إلى فطرة الله، التي فطر الناس عليها، وهي عبادته سبحانه وتعالى، انسجاما مع هذا الكون المحيط به، وتحقيقا للغاية من خلق الله لكافة المخلوقات. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعبُدُونِ. ما أُريدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وما أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ. إنَّ اللهَ هو الرّزّاقُ ذو القوّة المتين ﴾ سورة (الذاريات: ٥٦ - ٥٨) وقال سبحانه: ﴿ وَإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكن لا تفْقَهُون تسبيحهم ﴾ (الإسراء: ٤٤).

وتجدر الإشارة إلى أن من بين المفاهيم الخاطئة التي شغلت فكر الأستاذ النورسي لتصحيحها، مفهوم فصل الحياة عن الدين، وبعبارة أخرى فصل عبادة الله الشخصية عن تدبير شؤون الحياة الإنسانية والاجتماعية.

ولا أبالغ إذا قلت إن رسائل النور كان غرضها الأساس - وسيظل قائما - هو تبديد هذا الظلام المفاهيمي، والضلال التصوري للوجود الإنساني، ومحاولة إرجاع الناس إلى حقيقة وجودهم، وهي: عبادة الله تعالى، وتعمير الأرض والاستخلاف فيها، بصورة يسود فيها التعايش التعارف والتعاون بين الناس على نشر الخير، وتوسيع دائرته والتمكين له، والتعاون على دحر الشر، وتضييق رقعته والقضاء عليه، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ إنّا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى وجَعَلْناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعَارفُوا إنَّ أكْرَمَكُم عند الله أتقاكُمْ إن الله عليم خبيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقوله عز وجل: ﴿وتعاونوا على البِرِّ والتقوى ولا تَعَاوَنُوا على الإثْمِ والعُدْوَانِ ﴾ (المائدة:٣)

أهمية الموضوع:

ولأهمية ذلك، سأحاول - بحول الله وقوته - المزيد من الكشف عنه في هذا البحث، مع التركيز على إبراز علاقة العدالة بالعبادة، في ضوء الرؤية الكلية، التي سار على نورها الأستاذ النورسي في رسائل النور، ويمكن التقرير هنا أن هذه العلاقة - كما جاءت في الرسالات السماوية كلها - لم تنفك، ولن تكون منفكة أبدا، لأنها علاقة تكاملية؛ أي لا يمكن للإنسان أن يحيى حياة فيها عدالة بدون العبادة، كما لا يمكنه أن

يمارس العبادة دون أن يكون لها ارتباط بالعدالة، وإلا فإن الخلل سيحل محل النظام. ومن مظاهر هذا الخلل سيادة الظلم والفوضى والتصارع والتقاتل والتخاذل والتباغض واتباع الهوى والشهوات!

" فما دام الانسجام مع قانون الفطرة ضروريا، فإن تنفيذ قانون المساواة المطلقة لا يمكن إلا بتغيير فطرة البشر ورفع الحكمة الأساسية في خلق النوع البشري " (١)

وأكد الأستاذ النورسي رحمه الله - في رسائله - أنه لا يمكنه أن يعيش بمعزل عن الدفاع عن العدالة، كما جزم بأنه لا يمكن للإنسان الظالم أن يمحو القيم السامية كالعدالة من الحياة.

وهذه بعض كلماته في الموضوع: "... فأنا بكل ما أوتيت من قوة بجانب مع العدالة التامة، وضد الظلم والسيطرة والتحكم والاستبداد " (٢)

وذهب إلى القول - باعتقاد قرآني إيماني راسخ، وبأسلوب جازم - إلى أنه لا يمكن للظلم والجور أن يمحو الفضيلة المتسمة بالإيمان ورفعها إلا " بتبديل الماهية البشرية وإخماد العقل وقتل القلب وإفناء الروح " وأضاف قائلاً: " لا يمكن بالظلم والجور محو الفضيلة، ارفع الإدراك إن كنت مقتدرا من الإنسانية!... لا يمكن بالظلم والجور محو الحقيقة، ارفع القلب إن كنت مقتدرا من الإنسانية... لا يمكن بالظلم والجور محو الفضيلة، ارفع الوجدان إن كنت مقتدرا من الإنسانية " (٣)

تعريف العدالة لغة:

يرجع لفظ العدالة إلى الجذر اللغوي (عَدَلَ) نقول: عَدَلَ عَدْلاً، و" العَدْلُ ضِدُّ الجَوْرِ، وما قام في النفوسِ أنه مستقيم، كالعدالة... عَدَلَ يَعدِلُ فهو عادِلٌ... وعدَّلَ الحُكْمَ تعديلاً أقامه، وفلاناً زكّاه، والميزانَ سوّاه... والاعتدالُ تَوَسُّطُ حالٍ بين حالَيْن في كمٍّ أو كَيْفٍ. وكلُّ ما تناسب فقد اعتدل، وكلُّ ما أقمتَه فقد عدَلْتَه، وعدَلَ عنه يَعْدِلُ عدلاً وعدولاً حاد، وإليه عُدُولاً رَجَعَ " (٤)

وقال الراغب: " العدالة والمعادلة لفظ يقتضي المساواة "(٥).

---

(١) كليات رسائل النور(٣) اللمعات، اللمعة الثانية والعشرون، الإشارة الثانية، ص: ٢٥٧

(٢) نفسه، ص: ٢٥٨

(٣) نفسه، ص: ٢٥٨ ٢٥٩ بتصرف

(٤) القاموس المحيط للفيروزابادي، فصل العين، باب اللام (العدل) ٤ / ١٣.

(٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، فصل (العين) ص: ٣٣٦.

وجاء في المحيط : أن لفظ العدالة يعني " الإنصاف " [٦] والعادل هو المنصف الذي لا يجور... والعادل عن الطريق المائل أو الحائد عنه... والعادل عن الأمر الراجع عن رأيه [٧] و" عدل عن الحقِّ جَارَ " [٨]

نستخلص مما سبق أن العدالة والعدل لفظان يشملان الإنصاف في التعامل الاجتماعي، وإقامة العدل، والمساواة في الحكم، والتوسط في الأمور كلها، والاستقامة على طريق الصواب، وعدم الجَور في كل القضايا المعروضة للنظر والرأي.

تعريف العدالة في الاصطلاح:

أما العدالة في الاصطلاح الشرعي، فلم ترد في القرآن الكريم إلاّ بلفظ العَدْل، ذكر الراغب أن " العدل ضربان: مطلق يقتضي العقلُ حُسْنه ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً ولا يُوصَفُ بالاعتداء بوجهٍ نحوُ الإحسانِ إلى من أحسن إليك وكفِّ الأذيّةِ عمّن كفَّ أذاه عنك.

وعدلٌ يعرف كونه عدلا بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة كالقِصاصِ [٩]

تعريف العبادة لغة:

أصل لفظ العبادة من " عَبَدَ "، ويوصف الإنسان بأنه " عَبْدٌ "، وهو الإنسانُ حرّاً كان أو رقيقاً، وجمعه عبيد وعباد، و" المُعَبَّدُ " المذَلَّلُ من الطريق وغيره و" تَعَبَّدَ " تنسَّكَ، وتعبّدَ فلانا اتخذَه عَبْداً، والعَبْدِيَّةُ والعبوديّة والعُبودة والعِبادة: الطَّاعَةُ " [١٠].

وجاء في المحيط كذلك أن العابِد بمعنى " الخادم "[١١]

من خلال ما تقدم يمكن القول إن العبادة تعني الخضوع والطاعة والتذلّل والخدمة، وهي معان متقاربة في المعنى.

تعريف العبادة في الاصطلاح:

أما تعريف العبادة في الاصطلاح الشرعي، فقد ذكر العلاّمة الراغب الأصفهاني أن

---

(٦) المحيط: معجم اللغة العربية، تأليف جماعة من المؤلفين، حرف العين، ٢ / ٨٤٩.
(٧) نفسه، ٢ / ٨٣٥.
(٨) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، فصل (العين) ص: ٣٣٧.
(٩) نفسه، ص: ٣٣٧
(١٠) القاموس المحيط للفيروزابادي، فصل العين، باب الدال (العبد) ١ / ٣١١.
(١١) المحيط: معجم اللغة العربية، تأليف جماعة من المؤلفين، حرف العين، ٢ / ٨٣٤.

" العبودية إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلاّ من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى. ولهذا قال: ﴿ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ ﴾ (يوسف: ٤٠).

والعبادة ضربان: عبادةٌ بالتسخير وهو كما ذكرناه في السجود، وعبادةٌ بالاختيار وهي لذوي النّطق وهي المأمور بها في نحو قوله: ﴿ اعْبُدُوا ربَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١) ﴿واعبُدُوا الله ﴾ (النساء:٣٦) [١٢]

وعلى هذا الأساس تكون العبادة لله من أبرز الصفات الإيجابية التي يُمدَح عليها أصحابها، لأنهم حققوا معنى وجودهم؛وهو قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦)

وتكون العبادة لغير الله من أهم الصفات السلبية التي يقدح في أصحابها، لأنهم عبدوا المخلوقات، وتركوا الخالق سبحانه وتعالى. قال تعالى ﴿ وما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدوا إِلهاً واحداً لا إلهَ إلاّ هُوَ سبحانه عمّا يُشركون ﴾ (التوبة: ٣١).

كل شيء في الكون موزون:

إن الكون محفوظ بحفظ الله سبحانه وتعالى من أن تمتد إليه أيدي العابثين، وموزون بميزان الله الذي أظهر من خلاله عظمته وعدله وحكمته ليرتقي بالناس إلى درجة العابدين.

وقد بيّن الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة الكونية ليعتبر بها الإنسان في حياته. قال سبحانه: ﴿ الرحمنُ علَّمَ القرآنَ. خَلَقَ الإنسانَ علمهُ البيانَ. الشَّمْسُ والقمر بِحُسْبانٍ. والنَّجْمُ والشجرُ يسجدانِ. والسَّماءَ رَفَعَها ووضع الميزانَ ألاَّ تَطْغَوا في الميزانِ. وأقيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ و لا تُخْسِروا الميزانَ ﴾ (الرحمن: ١-٧).

ما أروع هذه الآيات الكريمات! إنها تؤصّل - إلى جانب آيات أخرى - للعلاقة الوطيدة بين العبادة والعدالة، اللتين قامت عليهما السماوات والأرض، بحيث لا يمكن للحياة أن تستقيم بدونهما، كما لا يمكن لأي إنسان، أن يستغني عنهما.

ذلك أن الإنسان مفطور على عبادة الله والشعور بضرورتها في الحياة، ومفطور أيضا على العدالة والإحساس بأهميتها تجاه غيره.

والمسلم حينما يمارس حياته الاجتماعية - مع المسلمين وغير المسلمين -

---

(١٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، فصل (العين) ص: ٣٣٠-٣٣١. وقد توسع المؤلف في أضرب من العبادة، منها أن يكون الإنسان عبداً لله، أو عبداً للدنيا، فليراجع مع شواهد من القرآن الكريم.

ويحرص على أن تكون العدالة هي التي ينبغي أن تسود، فإنه لا يجعل هذه العدالة منفصلة عن العبادة لله، لإيمانه بأن بينهما تلازما وتكاملا، ولاعتقاده كذلك أن الإيمان يزيد وينقص: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ ذلك أن العدالة تُعَدُّ مظهرا من مظاهر طاعة الله، كما يعتبر الظلم من مظاهر معصية الله.

وأرى هنا أن علاقة العدالة بالعبادة علاقة الجزء بالكل؛ أي أن الأصل في الحياة أن تكون جميع أعمال الإنسان مظهرا من مظاهر العبودية لله سبحانه وتعالى، ذلك أن الإيمان يأتي في القرآن الكريم ـ دائما ـ متبوعا بالعمل الصالح.

فمن العمل الصالح إقامة الشعائر التعبدية، كالصلاة والصوم والزكاة والحج...

ومن العمل الصالح كذلك إقامة ما تنتظم به أحوال الناس في مجال المعاملات والعلاقات الإنسانية، التي جاءت الشريعة الإسلامية بالمحافظة عليها بالعدل والمساواة والحق والرحمة...

إن المسلم، المدرك لمهمته التي خلقه الله من أجلها، لا يفرّق - حينما يسعى لإقامة حضارته الدنيوية - بين متطلبات الحياة الإنسانية العادلة، وبين متطلبات الشريعة الإسلامية، لأن الشريعة - في الأصل - لم يشرعها الله تعالى إلا من أجل ما يصلح أحوال الناس في الدنيا والآخرة.

قال الإمام الطاهر بن عاشور - رحمه الله -: " لا يمتري أحد في أن كل شريعة شرعت للناس أن أحكامها ترمي إلى مقاصد مرادة لمُشَرِّعها الحكيم تعالى، إذ ثبت بالأدلة القطعيّة أن الله لا يفعل شيئا عبثاً. دلّ على ذلك صنعه في الخلقة كما أنبأ عنه قوله: ﴿ وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما لاَعِبينَ. ما خَلَقْنَاهُما إلاَّ بالحَقّ ﴾ (الدخان: ٣٨-٣٩) ... وما أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الشرائع إلا لإقامة نظام البشر، كما قال تعالى: ﴿ لَقَد أرسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيّنَاتِ وأَنْزَلْنَا معهم الكتابَ والميزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥) ... فالشرائع كلّها وبخاصة شريعة الإسلام جاءت لما فيه صلاح البشر في العاجل والآجل أي في حاضر الأمور وعواقبها.. "(١٣)

من مقاصد القرآن الجمع بين العبادة والعدالة:

ذكر الأستاذ النورسي أنه " من المعلوم لدى المدققين أن مقاصد القرآن أربعة:

١- إثبات الصانع الواحد.

---

(١٣) مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، ص: ١١ بتصرف نشر مشترك بين دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢- النبوة.
٣- الحشر الجسماني.
٤- العدل." [١٤]

وأكد - رحمه الله - هذه الحقيقة في موضع آخر بقوله: " اعلم أن مقاصد القرآن الأساسية وعناصره الأساسية أربعة: التوحيد والرسالة والحشر والعدالة مع العبودية، فيصير سائر المسائل وسائل هذه المطالب " [١٥]

وممّا يمكن ملاحظته أن المقصد الرابع من مقاصد القرآن الكريم، وهو " العدالة " جاء هنا مقرونا بـ" العبودية " ، وهذا يؤكد أن الأستاذ النورسي - رحمه الله - كان يدرك إدراكا عميقا التلازم والترابط بين العدالة والعبودية، وهو بمثابة عملة واحدة ذات وجهين، لا يمكن استغناء أحد العنصرين على الآخر؛ إذ لا عدالة بدون عبادة، ولا عبادة بدون عدالة. ويمكن تقرير هنا قاعدة، وهي أن العبادة في حد ذاتها عدالة، والعدالة في حد ذاتها عبادة، أي حينما يقيم المسلم العبادة في الأرض فيعتبر هذا استجابة لله بطاعته في إقامة العبادة، وعندما يقيم المسلم العدل في الأرض فيكون في تلك الحالة مستجيبا لأمر الله بطاعته في إقامة العدالة.

من سنن الله في الكون ارتباط العدالة بالعبادة:

وقد جرت سنة الله تعالى في وَعْدِهِ للمؤمنين بالحياة الطيبة، في الحياة الدنيا، ومجازاتهم في الآخرة بأفضل مما كانوا يعملون، في الحياة الدنيا، ما داموا يمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه، ويربطون بين إقامة العبادة وتطبيق العدل في الأرض. قال سبحانه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وهُو مُؤمِنٌ فلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيِّبَةً ولَنَجْزِيَنَّهُم أَحْسَنَ ما كانوا يَعْمَلُون ﴾ (النحل:٩٧).

والكونُ كله - كما قررنا سابقا - يسبّحُ لله، ويَخْضَع لنظامٍ موزون لا يَخرُجُ عنه. وتبعا لذلك فالإنسان لا يمكنه الخروج عن النظام الكوني وقوانينه، وإلا عرّض نفسه للشقاء والتعاسة، في الدنيا والآخرة. ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن اتَّبَعَ هُدايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْري فإنَّ له معيشةً ضَنكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامَةِ أَعْمَى. قال رَبِّ لِمَ حشَرْتَني أعمى وقَدْ كُنْتُ بصيراً. قال كذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليومَ تُنْسَى. وكذلكَ نَجْزِي مَنْ أسْرَفَ وَلَمْ يُؤمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ ولَعَذابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وأبْقَى ﴾ (طه: ١٢١ – ١٢٤).

---

(١٤) كليات رسائل النور(٨) صيقل الإسلام، ص: ١٢٠
(١٥) كليات رسائل النور(٦) المثنوي العربي النّوري، ص: ٧٥

وقد نبّه الأستاذ النورسي إلى هذا المعنى، معاتبا الإنسان الظالم لنفسه، بقوله: "اعلم أن الاقتصاد والطهر والعدالة سنن إلهية جارية، ودساتير إلهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها، لا يفلت منها شيء إلا أنت أيها الشقي، وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وأنت تستحقها.."(١٦)

وقد جمع - رحمه الله - مجموعة من القواعد، تندرج تحت عنوان " دساتير اجتماعية " من هذه القواعد التي تتعلق بموضوع بحثنا قاعدة: " إن العدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة أصلاً .. " (١٧)

ولكي تتحقق العدالة ويكون الناس أمامها في درجة متساوية، لابد أن يستحضر كل إنسان البعد التعبّدي لله في ممارسة العدالة، ويعتبر نفسه في علاقته مع الناس كالجسد الواحد، الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى(١٨). وإلا كان ظالماً لنفسه، وظالماً لغيره، بسبب تغلب العقلية الأنانية على العقلية الجماعية!.

ومن توجيهات الأستاذ النورسي للإنسان المحروم من نعمة العدل والرحمة بنفسه قوله: " اعلم ! أن أظلم الخَلْق الإنسانُ. فانظر ما أشدّه ظلما! فلشدة حبّه لنفسه لا يعطي الأشياء قيمةً إلاّ بمقدار خدمتها لنفسه، وينظر إلى ثمرتها بمقياس نفعها للإنسان، ويظن العلة في الحياة عين الحياة. كلاَّ، إنّ للخالق في كلّ شيء حِكَماً تدقّ عن العقول..." (١٩)

وبَيّنَ كذلك أن العدالة الإنسانية ترتبط ارتباطا وثيقا بالعدالة الكونية، ولا تخرج عنها، لِكَوْنِ هذه الأخيرة (أي: العدالة الكونية)، صادرة عن الله تعالى، ذلك أن " العدالة العامة الجارية في الكون النابعةَ من التجلي الأعظم لاسم " العدل " إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل" (٢٠)

---

(١٦) كليات رسائل النور (٣) اللمعات، اللمعة الثلاثون، النكتة الثانية، ص: ٥٢٥

(١٧) كليات رسائل النور (١) الكلمات، اللوامع، دساتير اجتماعية، ص: ٨٧٣

(١٨) استقيت هذا الكلام من قوله ρ في حديث النعمان بن بشير "تَرَى المُؤمِنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسد بالسهر والحمى" رواه البخاري، في الجامع الصحيح بحاشية السندي، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٤/ ٥٣.

(١٩) كليات رسائل النور(٦) المثنوي العربي النّوري، ص:٣٣١

(٢٠) نفسه، ص: ٥٢٦

أثر العبادة في تحقيق العدالة:

خلق الله الناس وأنزل عليهم الكتب السماوية وكان آخرها القرآن الكريم، الذي جاءهم بالهدى في كل شيء يحتاجونه في حياتهم. وأرسل إليهم الرسل عليهم السلام، وكان آخرهم الرسول محمدٌ ρ ليبيّن لهم ما نزّل إليهم، ويتخذوه أسوة حسنة في تدبير شؤونهم، بما يحقق لهم صلاح معيشتهم في الدنيا، وصلاح آخرتهم التي إليها معادهم.

ولا يمكن أن يتحقق هذا ـ لكل من يرغب في ذلك ـ إلا إذا كان مدركاً للمقصد العام من وجوده في هذا الكون، وهو عبادته سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿وما خلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، الآية:٥٦)

كما أن الناس يحتاج بعضهم إلى بعض، ولو تفاوتوا في القدرات العقلية أو الجسمية. فكما لا يستغني الإنسان الحقير والوضيع عن الإنسان العظيم والرفيع، كذلك هذا الأخير لا يستغني عن ذلك الإنسان. وقد شاء الله الحكيم أن يجعل الافتقار والاحتياج سنّة من سننه الجارية والماضية في الكون، بياناً لافتقار الإنسان إلى غيره ولو كان أقل منه شأناً، وتأكيداً للافتقار الأعظم وهو افتقار الجميع إلى الله تعالى، واستحالة استغنائهم عنه، لأنه جلت قدرته هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه من المخلوقات.

قال تعالى في بيان احتياج الناس بعضهم إلى بعض لإصلاح شؤونهم: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ (الزخرف: ٣٢)

تُوضِّحُ هذه الآية الكريمة - بما لا يدع مجالاً للشكّ - أن النّاس لا يستغني بعضهم عن بعض، لتظهر لهم حكمة الله في أن التفاوت بين الناس دليل على افتقار بعضهم إلى بعض، وإذا كان كذلك فمن باب أولى أن يكون افتقارهم جميعاً إليه سبحانه، الذي وصف نفسه بأنه: " الصَّمَدُ " في قوله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. اللهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١-٤).

ذكر الإمام القرطبي أن الصَّمَد هو: "الذي يُصْمَدُ إليه في الحاجات. كذا روى الضحاك عن ابن عباس، قال الذي يُصمد إليه في الحاجات؛ كما قال عز وجل: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (النحل: ٣٥). قال أهل اللغة: الصمد: السيد الذي يصمد إليه في النوازل والحوائج..." وهذا القول هو الذي رجّحه على غيره.(٢١)

---

(٢١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تفسير سورة الإخلاص بتصرف

ولكي ينعم النّاس بثمرات التعاون فيما بينهم، فلابد أن تكون تلك الثمرات محفوفةً بطاعة الله وعبادته، مع استحضار مبدأ العدالة في تبادل المنافع واستثمارها[٢٢]

ويجدر التنبيه إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يفرّقوا بين الدعوة إلى إقامة الشعائر التعبدية وبين إرشاد الناس إلى اعتماد الشرائع المنظمة للحياة الاجتماعية بين المسلمين من جهة، وبين المسلمين وغيرهم من جهة أخرى.

ودفعاً للشبهات التي وضعها بعض المستهينين بالشريعة الإسلامية، لجهلهم بها، والمنبهرين بالعالم الغربي الذي أقام الحياة على قوانين عادلة، باستقلال عن الدين عامة، والإسلام خاصة.

دفعا لتلك الشبهات، قال الأستاذ النورسي:

"إذا قلت: إننا نشاهد أن أحوال الملحدين أو ذوي الأديان المنحرفين تجري على وفق العدالة والانتظام.

الجواب: عن تلك العدالة والانتظام إنما نشآ بتذكير أهل الدين وإرشاداتهم. فأسس العدالة والفصيلة شيّدها الأنبياء عليهم السلام، أي أن الأنبياء هم الذين أرسوا تلك القواعد والأسس. ثمّ أخذ هؤلاء بالفضيلة وعملوا بها ما عملوا، زد على ذلك فإن نظامهم – وكذا سعادتهم – ليس دائما بل مؤقتاً، فهو إن كان قائماً ويستقيم من جهة فهو منحرف ومائل من جهات كثيرة. أي: مهما يبدو منتظماً في صورته ومادته ولفظه ومعاشه إلا أنه في سيرته ومعناه وروحه فاسد مختل " [٢٣]

إن هذه الحقائق الخالدة التي ذكرها الأستاذ النورسي أصبحت على أرض الواقع الإسلامي المعاصر عبارة عن أخبار الأمة الإسلامية في الزمن الماضي، جاء بعدها حين من الدهر لوحظ فيه تراجع المسلمين عن دورهم القيادي والريادي للأمم الأخرى، لأسباب ذاتية وموضوعية.

فالأسباب الذاتية – بإيجاز – تتجلى في ضعف الإيمان والعمل الصالح، وقوة التمسك بالدنيا والتنافس فيها والاقتتال من أجلها، وإيثار المصالح الخاصة على المصالح العامة.

(٢٢) للتوسع في هذه الفكرة يراجع صيقل الإسلام للأستاذ النورسي، في الصفحتين: ١٣٧ و١٣٨.
(٢٣) كليات رسائل النور(٨) صيقل الإسلام، ص:١٣٩

وقد استعرض الإمام البخاري مجموعة من الأحاديث في الفتن التي أخبرنا النبي ρ بوقوعها بعد وفاته، وحذرنا من الاقتتال فيما بيننا بسببها وبسبب ظلم بعضنا البعض.[٢٤]

أما الأسباب الموضوعية: فهي فرع عن تلك الأسباب الذاتية، ولذلك فإن أعداء الدين، بصفة عامة، والإسلام بصفة خاصة، استغلوا أسباب ضعف المسلمين، ووضعوا أيديهم في أيدي المستعمرين لإضعاف قوة المسلمين، وحالوا بينهم وبين الرجوع إلى الإسلام الذي شرعه الله تعالى، وشغلوهم عن إعادة بناء حضارتهم الإسلامية، وأرغموهم على اعتماد نظام الحياة على الطريقة الغربية، المستغنية عن الدين والأخلاق والقيم الإنسانية النبيلة.

إننا نحن المسلمين نحتاج اليوم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ إلى أن نعود إلى ديننا والتمسك به لاسترجاع خيرية الأمة الإسلامية، وإنقاذ العالم من سوء الفتن ما ظهر منها وما بطن، وذلك باستحضار المعاني الخالدة لقوله تعالى: ﴿ أُدْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). وهي معانٍ تجعلنا ندرك طبائع البشر، ومستوياتهم المختلفة في دعوتهم إلى الإسلام، وإقناعهم بضرورته في الحياة؛ فهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية، وأرشدهم إليه لتحقيق الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأتْمَمْتُ عليكم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُم الإسْلاَمَ ديناً ﴾ (المائدة: ٤).

والسؤال المنطقي، الذي يمكن أن نلقيه، هو: هل يعقل أن نختار ديناً آخر غير دين الإسلام، الذي قال عنه سبحانه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُم الإسْلاَمَ ديناً﴾.؟

الجواب المنطقي أيضا: لا نرضى بديلا عما اختاره الله لنا، لأنه جلّت قدرته وحكمته، هو أعلم بنا منّا، وأعلم منّا بما يُصْلِح أحوالنا في الحياة الدنيا.

---

(٢٤) من الأحاديث التي أوردها الإمام البخاري في الموضوع ما رواه أبو بكرة رضي الله عنه أن النبي ρ خطب الناس في حجة الوداع فقال: "... لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض" كتاب الفتن، باب قول النبي ρ: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض. وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت: استيقظ النبي ρ من النوم محمَرّاً وجهه يقول: " لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب فُتِحَ اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثلُ هذه وعقد سفيان تسعين أو مائةً، قيل أنَهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث "كتاب الفتن، باب قول النبي ρ: ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب. وللتوسع يراجع كتاب الفتن في صحيح البخاري وغيره.

"ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً، بل ربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام " (٢٥)

يمكن التقرير بكل يقين ـ بناء على كلام الأستاذ النورسي ـ أن سلوكنا الاجتماعي المعاصر يحتاج إلى عرضه على ثقافتنا الإسلامية النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وجهود العلماء الربّانيّين، في مختلف الأزمنة والأمكنة، لاستدراك النقائص.

حاجتنا إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة:

وقد كان من أبرز أولويات الأستاذ ـ كما كان حال كثير من المصلحين المسلمين قبله وفي زمانه وبعده ـ هو تصحيح المفاهيم، ومن بين هذه المفاهيم ذات الأهمية الكبرى: المفهوم الشمولي للإصلاح الاجتماعي، أي إصلاح التصور الكلي في معالجة المشكلات في المجتمع، وذلك بالربط بين الدين والحياة الاجتماعية، وعدم الفصل بينهما.

قال الأستاذ النورسي بهذا الصدد: " أجل إنه لا سعادة لأمة الإسلام إلاّ بتحقيق حقائق الإسلام، وإلاّ فلا، عدالة قطعاً، ولا أمانَ مطلقاً. إذ تتغلب عندئذ الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة، ويبقى الأمر معلّقاً بيد الكذّابين والمرائين" (٢٦)

ومما يمكن استفادته من كلام الأستاذ - رحمه الله - أن الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة تعكس ضعف الارتباط بالجانب التعبدي في التعامل مع مختلف القضايا ذات الطابع الاجتماعي، ويحلّ الظلم محلّ العدل، ويأخذ الشر مكان الخير، ويستولي الظلام على القلوب فيزول النور منها، وتظهر صفات النفس الأمارة بالسوء وتغيب صفات النفس المطمئنة، لولا لطف الله بالأمة الإسلامية.

ومن تجليات رحمته تعالى:

- إنزال القرآن الكريم، وجعله مصدراً لنا لإصلاح النفس والمجتمع.
- إرسال الرسول محمد ρ، وأمرنا باتِّبَاعه والاقتداء به.
- الاستنارة بسيرة الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم من التابعين وتابعيهم من العلماء والأئمة والدعاة والمصلحين.

---

(٢٥) كليات رسائل النور(٨) صيقل الإسلام، ص:٤٩٤.

(٢٦) نفسه، ص: ٥٢١.

- التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل لكي يكون الدين كله لله.

ومما يمكن التنبيه إليه كذلك أننا - نحن المسلمين - نحتاج إلى التمكن من الثقافة الإسلامية الأصيلة للخروج من الأزمة الفكرية والتصورية التي نتخبط فيها، وهي: أزمة الفصل بين الدّين والدّنيا، بصفة عامة، والتنافر بين العبادة والعدالة بصفة خاصة.

إن هذا الفصل كان - ولا يزال - من أكبر الضّرباتِ الموجعة، التي وجّهها أعداء الدين إلى البشرية عموما، والمسلمين خصوصاً. وإذا أمعنّا النظر في واقعنا الحالي لوجدناه أكبر شاهد على ذلك، بحيث أصبحنا أمة ممزّقة، ومفرّقة، بسبب تفاوت المفاهيم، ومن أبرزها: انقسام الناس إلى قسمين كبيرين حول مفهوم علاقة الدين بالدنيا بين " الاتصال " و" الانفصال " ! هذا من جهة.

وهذا يتطلب مراجعة لهذا المفهوم مراجعة علميّة بشكل دقيق وعميق، لأننا - في الأصل - كما قال الأستاذ النورسي:

"نحن نحبّ الدين ونحب الدنيا أيضاً لأجل الدين..[ولا خير في الدنيا بلا دين]"(٢٧)

لذلك لنا أن نتساءل: لماذا يسعى كثير منّا إلى جعل القطيعة بين الدين والحياة ؟ ولماذا نفصل بين الاهتمامات الدينية والاهتمامات الدنيوية فصلاً يصل إلى درجة نعتبر فيها إمكانية استغناء كلِّ مجال عن الآخر؟

ومن جهة أخرى، فإن مرد التمزق بين المسلمين، وما سبّبه ذلك التمزق من ظلم بعضهم لبعض، راجع أساساً إلى "ضعف الوازع الديني".

وقد وقف الأستاذ النورسي على الدّاء الذي كان سبباً في تفشّي تلك المساوئ، من خلال الواقع الذي عاصر أحداثه، وتألّم كثيراً من طغيان ذلك الواقع السّلبي. وحمّل - في نفس الوقت - المسلمين المسؤوليّة في إهمال الدين، في بعض جوانبه، ذلك أن " إهمالاً طفيفاً في الدين أدّى إلى إرساء قواعد طوائف الملوك وظهور الجاليات الميّتة قبل ثلاثة عشر قرناً، وبالتالي إلى ظهور الفتن والقلاقل، وقد ظهرت وشاهدناها " (٢٨).

(٢٧) نفسه، ص: ٥٣٣.

(٢٨) نفس المصدر والصفحة.

لذلك كان الأستاذ النورسي - ذو القلب المجروح بهموم الحالة السيئة التي وصلت إليها الأمة الإسلامية - يبعث الأمل باستمرار في المهزومين من ضعاف الإيمان من المسلمين، بأن نور الله سيبدّد الظلام، وسيوحّد القلوب والجهود المخلصة والصادقة نصرةً لدينه، ودفاعاً عن المؤمنين الذين يظهرونه، ومجازاةً لهم في الدنيا بالحياة الطيبة على استجابتهم له ولرسوله ρ.

وقد كان يؤكد - رحمه الله - في كل صفحة من صفحات رسائل النور أن الله سبحانه خلق الإنسان للعبادة، وليس لغير العبادة، وإذا خرج عن هذا الإطار لا يمكنه أن يحيى حياة عادلة ومستقرة، مع نفسه ومع غيره..

ومما قاله بهذا الصدد: "ثم إن فطرة الإنسان وما أودعه الله فيه من أجهزة معنوية تدلاّن على أنه مخلوق للعبادة؛ لأن ما أودع فيه من قدرات... وما يؤديه من عمل لحياته الدنيا لا تبلغه مرتبة أدنى عصفور - الذي يتمتع أكثر منه وأفضل - بينما يكون الإنسان سلطان الكائنات وسيد المخلوقات من حيث حياته المعنوية والأخروية بما أودع الله فيه من علم به وافتقار إليه وقيام بعبادته"[(٢٩)]

وإذا تأمّلنا في مظاهر العبادة نجد أن الله شرع لنا الصلاة خمس مرات في كل يوم وليلة، باعتبارها أعظم مظهر من مظاهر عبادة لله. ومن كان هذا حالُه مع الله، فلا يكون إلاّ إنساناً سعيداً وساعياً إلى حب الخير لنفسه ولغيره، ومحسنا إلى نفسه وغيره.

ذلك " أن الصلاة بذاتها راحة كبرى للروح والقلب والعقل معاً. فضلاً عن أنها ليست عملاً مرهقاً للجسد. وفوق ذلك فإن سائر أعمال المصلّي الدنيوية المباحة ستكون له بمثابة عبادة الله، وذلك بالنّيّة الصالحة..فيستطيع أن يحوّل المصلّي جميع رأس مال عمره إلى الآخرة، فيكسب عمراً خالداً بعمره الفاني " [(٣٠)]

ومن هنا ندرك أن الصلاة ليست عبادة جسدية فقط، نؤدي فيها حركات آليةً أثناء القيام والركوع والسجود، بحسب عدد الركعات في كل صلاة، بل إن المقصد من تشريع الصلاة أسمى من ذلك، لأن الله تعالى أراد منّا أن تكون عبادتنا خالصة له، ومن ثمَّ تنعكس آثارها الإيجابية على سلوكنا اليوميّ مع الناس، ومع كل ما يحيط بنا من كائنات ومخلوقات.

---

(٢٩) كليات رسائل النور (١) الكلمات، ص: ٢٠.

(٣٠) نفسه، ص: ١٧.

ولذلك نؤمن بأن السلوك الاجتماعي العادل فرضٌ وواجبٌ شَرْعاً، كما نعتقد بأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام من العبادات التي أوجبها الله علينا.

ونؤمن أيضاً بأن السلوك الاجتماعي الظالم حرامٌ ومنهيٌّ عنه شرعاً، كما نؤمن بأن شرب الخمر وممارسة الزنا واللواط وأكل الربا من المعاملات التي حرّمها الله علينا ونهانا عنها.

وقد أرشدنا الله تعالى إلى مقاصد البعثة النبوية في الآية الكريمة التي يمكن اعتمادها مصدرا للتشريع الديني والدنيوي، الذي لا يستغني عنه إلاّ من حَرَم نفسه نعمةَ "رحمةِ الله"، المتجلية في أن يكون الإنسان عابداً عبادةً كلّيّةً لله، لا أن يكون عابداً لغيْرِ الله

قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ. فَسأَكْتُبُها للَّذين يَتَّقُون وَيُؤْتُونَ الزّكاةَ وَالَّذينَ هُمْ بِآيَاتِنا يُؤْمِنون. الّذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذي يجِدُونه مكْتوباً عِندَهم في التَّوْراةِ والإنجيلِ يَأْمُرُهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكرِ ويُحِلُّ لَهم الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عليْهِم الخبائِثَ ويَضَعُ عَنْهم إِصْرَهُم والأغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِم * فالّذينَ آمنوا به وعَزَّروهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الّذي أُنْزِلَ مَعَهُ أولئكَ هُم المُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٦).

يتّضح من الآيات، التي كتبتُها بخط مغاير مع تسطيرها، أن الله بعث الرسول ρ إلى الناس جميعاً ليدعوهم إلى دستور قرآني شامل لما يُصلِحُ حياتهم.

ولا يمكن أن نرى بالعين المجردة والقلب الصافي والعقل السليم حياةً سعيدة وطيّبةً إلا بتحقيق هذا الدستور القرآني النّبويّ، الذي طبّقه رسول الله ρ في حياته، واستجاب له الذين فتحوا قلوبهم وعقولهم للحقّ، فاهتدوا به وسادوا وقادوا به العالم إلى الحياة الطيبة لأنهم امتثلوا ـ مختارين، وغير مجبَرين ـ للدستور القرآني النّبويّ، وهو:

فعل المعروف، وترك المنكر، وأكل ما أحل الله من الطيبات، واجتناب أكل ما حرم الله من الخبائث.

ومن مظاهر تكريم الله للأمة الإسلامية، أنه - سبحانه وتعالى - رحمها بهذا الدستور القرآني النبوي، الذي هو عبارة عن تشريع خفيف على النفس، لا تكاليف شاقة تحصل بالاستجابة إليه. كما كان الحال بالنسبة للشرائع الإلهية السابقة.

لذلك قال تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهم إِصْرَهُم والأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِم ﴾ (٣١)

ومن هنا يدرك المسلم - أكثر من غيره - أنه عبدٌ لله، متحرّر من عبادة غير الله، ويرى بنور الله أن " سائر أعماله الدنيوية المباحة ستكون له بمثابة عبادة الله، وذلك بالنّيّة الصالحة.. فيستطيع أن يحوّل جميع رأس مال عمره إلى الآخرة، فيكسب عمراً خالداً بعمره الفاني " (٣٢)

وإذا كان الناس يردّدون القولة المشهورة: " العدل أساس الحكم "، فعلينا أن نردّد إلى جانبها قولة أخرى، استنبطتها من خلال تأمّلاتي المتكررة للآيات القرآنية ـ التي ورد فيها لفظ العبادة بجميع مشتقاتها ـ وهذه القولة هي: " العبادة أساس العدل" (٣٣)، لأنَّ العدل قد يتحوّل إلى الظُّلْمِ والجَوْرِ إذا كانت العبادة ضعيفةً في النفوس، أو مُهْمَلَةً في المجتمعات.

لكن الوازع الديني يقف في وجه الظلم، فيستحضر المسلم النصوص الشرعية في الترغيب في العدل وبيان فضله وآثاره الإيجابية، والترهيب من الظلم والتنفير منه وبيان آثاره السيئة.

قال سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شُهداءَ بالقِسطِ ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قَوْمٍ على ألاَّ تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هو أقربُ للتَّقْوى واتَّقوا الله إنَّ الله خبير بِما تَعملونَ ﴾ (المائدة: ٩).

وقال تعالى: ﴿ وضَرَبَ الله مَثَلاً رَجُلَيْنِ أحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِر على شيءٍ وهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ أينما يُوَجِّههُّ لا يأْتِ بِخَيْرٍ هلْ يَستوي هو ومَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ وهو على صراطٍ مُستقيمٍ ﴾ (النحل: ٧٦).(٣٤)

وأورد الإمام البخاري جملة من الأحاديث النبوية التي ترغِّبُ في العدل، وخصوصا في مجال الإصلاح بين الناس، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي قال: قال رسول الله ρ: " كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدقةٌ كُلَّ يومٍ تَطْلُعُ فيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بين الناسِ صَدَقَةٌ "(٣٥)

---

(٣١) للتوسع في مقاصد هذه الآيات يراجع تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور، ٩/ ١٣٥ – ١٣٧.

(٣٢) كليات رسائل النور(١) الكلمات، ص: ١٧ بتصرف طفيف

(٣٣) هذه القاعدة لم أسبق إليها فالحمد لله الذي وفّقني إلى صياغتها

(٣٤) يمكن الرجوع إلى السور التالية التي ورد الأمر بالعدل فيها : سورة النساء، الآية ٥٨ والآية ١٣٥، وسورة النحل، الآية ٩٠، وسورة الشورى، الآية ١٥، وسورة الحجرات، الآية ١٤.

(٣٥) الجامع الصحيح للإمام البخاري، كتاب الفتن، باب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم.

إن الخير كل الخير في الرجوع إلى شريعة الإسلام العادلة، والاستفادة من محاسن الحضارة الغربية، لينعم الجميع بالسعادة والطمأنينة، ويتمتع الكل بالاستقرار والسكينة.

"... فالحرية والعدالة والمساواة التي كان يرفل بها خير القرون والخلفاء الأربعة، ولا سيما في ذلك الوقت، دليل على أن الشريعة الغراء جامعة لجميع روابط المساواة والعدالة والحرية الحقّة. فآثار سيّدنا عمر وسيّدنا عليّ رضي الله عنهما وصلاح الدّين الأيّوبي دليل، وأي دليل على هذا الادّعاء "(٣٦)

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن هذه المبادئ السامية والعليا للشريعة الإسلامية تبقى - في غالب الأحيان - حِبْراً على الأوراق، لأنها تتنافى مع ما يمارسه كثير من المسلمين من سوء الأخلاق، لذا وجب الاهتمام بالتغيير الذاتي، أي تغيير ما في القلب من ضعف الوازع الديني، والتهاون في عبادة الله، في جميع مجالات الحياة، والتقليد الأعمى للغربيين ومسايرتهم في كل شيء دون تمييز.. ولتحسين أحوالنا، لابد من أن ننتبه إلى أمراضنا، ثم نطلب - بعد ذلك - الشفاء من خالقنا. هذه هي سنة الله في قيام الحضارات وسقوطها. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِم ﴾ (الرعد:١١)

وقد كان لسان الأستاذ النورسي يجهر بالقول لبيان خطورة ما آل إليه المسلمون حتى أصبحت الأمم تتداعى عليهم من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ.

قال رحمه الله: " ومن هنا أقرر: أن سبب تأخرنا وتدنّينا وسوء أحوالنا إلى الآن ناتج مما يأتي:

- عدم مراعاة أحكام الشريعة الغراء.
- تصرفات بعض المداهنين تصرفا عفويا.
- التعصب المقيت في غير محلّه سواء لدى عالم جاهل أو جاهل عالم!
- تقليد مساوئ المدنية الأوربية تقليدا ببغائياً - بسوء حظّنا أو سوء اختيارنا - مما وَلَّدَ تركنا لمحاسن المدنية التي تستحصل بمشكلات ومصاعب..."(٣٧)

ومما سبق يمكن ملاحظة الفرق بين أسس الحضارة الغربية وأسس الحضارة الإسلامية؛ ذلك أن أسس الحضارة الغربية تستمد دستورها في الحياة من اجتهادات الإنسان، أما أسس الحضارة الإسلامية فتستقي شريعتها في الكون من وحي الرحمن: القرآن وكلام الرسول العدنان، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

---

(٣٦) كليات رسائل النور(٨) صيقل الإسلام، ص:٣٥٧ – ٣٥٩ بتصرف

(٣٧) نفسه، ص:٣٧١

ولذلك كان عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين - رضي الله عنه - يدرك عمق المشكلة النفسية والاجتماعية، لدى من يحمّلهم مسؤولية تدبير شؤون الناس، فيوصيهم بالمحافظة على الجانب الديني، قبل النظر إلى الجانب الدنيوي، حرصا منه على أن يؤدوا واجبهم بأمانة، فلا يجوروا في أعمالهم.

وقد روى الإمام مالك عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه كتب إلى عُمَّالِه "إنَّ أهمّ أمركم عندي الصّلاةُ فَمَن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع..."(٣٨)

وإذا كانت المحافظة على الصلاة في وقتها تؤدي إلى المحافظة على أداء المسؤوليات بأمانة، فإن سياج ذلك يكمن في إخلاص النية لله تعالى؛ لأنّ الإخلاص يوطد العلاقة بين العبادة لله وإقامة العدالة لله كذلك.

وقد عبّر الأستاذ النورسي عن حقيقة الإخلاص الذي يكاد يكون خافتا، بسبب الافتتان بالدنيا، واتِّباع شهواتها.. قلت عبّر عن ذلك بقوله: " إن الإخلاص واسطة الخلاص ووسيلة النجاة من العذاب، فالعداء والعناء يزعزعان حياة المؤمن المعنوية فتتأذّى سلامة عبوديّته لله، إذ يضيع الإخلاص! ذلك أن المعاند الذي ينحاز إلى رأيه وجماعته يروم التفوق على خصمه حتى في أعمال البر التي يزاولها، فلا يوفق توفيقاً كاملاً إلى عمل خالص لوجه الله. ثم لا يوفق أيضا إلى العدالة، إذ يرجح الموالين لرأيه الموافقين له في أحكامه ومعاملاته على غيرهم.. وهكذا يضيع أساسان مهمان لبناء البر " الإخلاص والعدالة " بالخصام والعداء "(٣٩)

خاتمة:

وبعد فقد استفدت كثيرا من مطالعة رسائل النور، فوجدت الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي - رحمه الله - قد أجاد وأفاد في استخراج المعاني من نور القرآن ومن نور الإيمان ومن نور الكون، وهي أنوار شغلت اهتمامات الأستاذ ودفعت همومه تتجه نحو التفكير في إصلاح النفوس والمجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية. وهي أنوار جعلته أيضاً يخترق مظاهر من الظلمات بسبب الجهل بالشريعة الإسلامية، ومظاهر أخرى من الظلمات بسبب الجهل بإيجابيات المدنية الغربية؛ فقدّم حلولاً عمليّةً لمساعدة الحيارى وإخراجهم من كافة الأزمات، وعلى رأسها الأزمة الإيمانية في

(٣٨) الموطأ، للإمام مالك، باب وقوت الصلاة.

(٣٩) كليات رسائل النور (٢) المكتوبات، المكتوب الثاني والعشرون، ص:٣٥٠

التعامل مع المفاهيم، ومنها: مفهوم العلاقة بين الدين والدنيا (العبادة والعدالة). وبالتتبع الدقيق لرسائل النور وجدت أن الأستاذ النورسي رحمه الله كان يتميز - على كثير من العلماء والصلحاء - بالفكر العميق في تناول القضايا التي عليها أفكار الناس تدور.

ولذلك كان يكتب بقلمه ويتكلم بلسانه - رحمه الله - وليس همّه سوى ربطه بين العبادة والعدالة ربطا محكما، وجعلهما متصلين إلى درجة يجعل السامع لكلامه، والقارئ لرسائله يطمئن إلى أن العبادة والعدالة لا يمكنهما أن ينفصلا أبداً،

كما كان يبيّن بتفصيل - بمختلف الأدلة النقلية والعقلية والطبيعية والإنسانية - أن " الوصل بين العبادة والعدالة أصيل "، وأن " الفصل بينهما دخيل ".

وقد أتيحت لي الفرصة، لأبحث الموضوع - الذي كنت مشغولا به منذ سنين - بشكل أكثر اتساعا في الرؤية، من خلال اطلاعي على رسائل النور التي وجدت فيها ما ينقصني من معلومات نادرة، والشكر موصول إلى أستاذي فضيلة الدكتور أحمد أبو زيد الذي زودني برسائل النور، كما أشكر زميلي الدكتور خالد الصمدي الذي شجعني للمشاركة في هذا المؤتمر المبارك.

ولا يفوتني هنا أن أدعو للأستاذ العلامة بديع الزمان سعيد النورسي - رحمه الله - استجابة لندائه، الذي قال فيه " يا من نظر في كتابي! إن استفدت منه شيئاً لابدّ أن تفيدني فاتحة أو دعاءً خالصاً في سبيل الله. "(٤٠)

فاللّهم اجزه عني وعن الذين استناروا بأفكاره النورانية خير الجزاء،
وأنزله منزلا يليق به مع النّبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً،
وتقبّل صالح الأعمال مِن كلّ مَن خدم رسائل النور:
تحقيقا وترجمة وطباعة وتعريفا بها.

وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين.

---

(٤٠) كليات رسائل النور(٦) المثنوي العربي النّوري، ص: ٣٥.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

- القرآن الكريم.
- كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله)، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي (حفظه الله):
• الكلمات، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، نشر شركة دار سوزلر للنشر، استانبول.
• المكتوبات، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، مصر، نشر وتوزيع شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة.
• اللمعات، ط٢، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، مصر، نشر وتوزيع شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة.
• المثنوي العربي النّوري، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، مصر، نشر وتوزيع شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة.
• صيقل الإسلام، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، نشر شركة دار سوزلر للنشر، استانبول.
- تفسير التحرير والتنوير، للشيخ الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر بتونس، بالتعاون مع الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان بليبيا بدون تاريخ.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، نشر مشترك بين دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، بحاشية السندي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ.
- جامع أحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن، للعلامة الراغب الأصفهاني، بتحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، بدون تاريخ.
- القاموس المحيط للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، طبعة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م دار الفكر، بيروت ـ لبنان.
- المحيط: معجم اللغة العربية، *تأليف*: أديب اللجمي والبشير بن سلامة وشحادة الخوري وعبد اللطيف عبيد ونبيلة الرزاز. *مراجعة وتنسيق*: أديب اللجمي ونبيلة الرزاز. *تقديم*: الأستاذ الدكتور محيي الدين صابر. الطبعة الثالثة، ١٩٩٦، مؤسسة المحيط، بيروت – لبنان.